المحاضرة الثالثة: جمع المادة التاريخية: مطالبها وخصائصها

مفهومها وأهميتها:

لا يكتب التاريخ بناء على التصور ولكن ينطلق مما توفره الأصول – المصادر والمراجع – أولا، ويعتمد على ذهنية الباحث والمؤرخ في نقد النصوص والمادة التي توفرت لديه من مختلف المصادر والمراجع ثانيا، في هذه المرحلة الثانية يقوم الباحث بمقابلة المادة ببعضها في محاولة لاعادة بناء الوقائع التاريخية، والوصول الى نتائج حتى ولو كانت ضئيلة أو غير مؤكدة، أو دحض ونقد نتائج سابقة؛ ومن معاني عملية جمع المادة الاقتباس للنصوص والشواهد التاريخية المتناثرة في الوثائق والمصادر، وكذلك تحليلات وآراء المؤرخين والفلاسفة.

ترجع أهمية مرحلة جمع المادة التاريخية إلى أنها هي أطول المراحل زمنا، وإذا انتهى منها الباحث يكون قد أمضى على الأقل ثلثي مرحلة بحثه، وتبدأ هذه العملية من الوثائق والمصادر وترتب زمنيا وأقربها للحدث، وهو ما يستدعي معرفة أولية بطبيعة الوثائق وبالمؤرخين والمؤلفين، ويجب أن يصاحب عملية التوثيق – جمع المادة – منذ البداية الاستيعاب وطرح الأسئلة حتى تتوسع مجالات البحث من جهة وتعرف المعلومات المتكررة ولا يضيع جهد الباحث في تسجيل ما هو مسجل، إضافة إلى أن القراءة المتأنية تساعد الباحث على صب المادة في الخطة في مكانها، وهي محطة مهمة وتسهل المرحلة التالية في البحث وهي البناء والتركيب.

إن القراءة الناقدة خلال هذه المرحلة تثير الأسئلة البناءة وتعرف الباحث بالقضايا والإشكالات ذات الأهمية القصوى من القضايا ذات الأهمية الوسطى والدنيا، وبالتالي تترقى له إشكالية البحث الأولية وتبرز له عناوين الفصول والمباحث واضحة ومرتبة، فالباحث في الدراسات العليا هو قارئ قبل أن يكون متلقٍّ، وكلَّما ازداد حجم قراءاته، واتسعت مداركه كلَّما كانت بحوثه أكثر توفيقا، وأعمق أثرا، فبالإضافة إلى البحوث السابقة والجارية في مجال تخصصه عليه أن يطلع على ملخصات كتب المراجع العلمية، وكتب الثقافة العامة، والمجلات المحكمَّة وغير المحكَّمة، ومواقع الأنترنات الجادَّة في مجال اهتمامه... الخ.

يقسم بعض الباحثين المصادر إلى نوعين: مصادر أولية وهي المعاصرة والقريبة للحدث وموضوع الدراسة، مثلا إذا كان لدينا موضوعا حول "الطرق التجارية بين الشمال الإفريقي والصحراء الكبرى خلال الفترة الحديثة". فان كتب الرحالة الذين رافقوا القوافل والمراسلات الدبلوماسية بين سلاطين وأمراء الممالك الصحراوية ودول الشمال الإفريقي وكذلك الرواية الشفوية تعتبر مصادر أولية.

أما المصادر الثانوية أو ما تعرف بالمراجع فهي كل ما كتب عن الموضوع من كتب ومقالات ودراسات أكاديمية، وبعضها يرتقي إلى أهمية المصدر مثل الأطروحات أو المؤلفات التي تشتمل على وثائق معاصرة للموضوع، إضافة إلى أن الدراسات والمراجع على العموم تفسر وتنقد الأحداث الواردة في المصادر، مع العلم أنها جهود علماء وباحثين سبقونا ويجب ألا تضيع أو تهمش.

مطالب ومحاذير: قبل وأثناء عملية جمع المادة على الباحث أن يراعي:

- ضرورة ترتيب المصادر والمراجع حسب أولويتها وأهميتها للموضوع، فالأرشيف أولا وأي نوع وأي مجموعة منه، ثم الوثائق المطبوعة فمصادر التوثيق الأخرى حسب أهميتها، وطبيعة الموضوع نفسه هو الذي يحدد هذه الأهمية؛ مثلا موضوع اجتماعي لفترة زمنية محددة أصوله الأولى هي التقارير والإحصائيات والصحافة المعاصرة، وإذا

كانت مرحلة الموضوع قريبة من الباحث يمكنه الاستفادة من المذكرات والرواية الشفوية، فطبيعة الموضوعات هي التي تحدد أولوية المصادر، فعادة أن المجازر الاستعمارية لا نجدها مدونة في الأرشيفات الإدارية للدول، خاصة إذا كانت منشورة أو يسمح للباحثين الاطلاع عليها.

- على الباحث أن يتجنب الاعتماد على مصدر واحد أو مجموعة مصادر ترجع إلى تيار واحد من المؤرخين، لأن تعدد المصادر تسمح بمقابلة المادة العلمية ببعضها، وتثير الأسئلة التي تخدم البحث؛ وإذا لم تتوفر مصادر أخرى فعلى الباحث أن يرجع إلى وسائل أخرى كطرح تساؤلات حول الموضوع، لأن الاعتماد على مصدر واحد قد يوقع الباحث في مزالق تؤثر على نتائج وقيمة عمله.

- أولوية الوثائق غير المنشورة وذات الطابع الخام على الوثائق التي تم التعامل معها، فالوثائق المطبوعة يجب أن تثير تحفظ الباحث، ما الغاية من نشرها؟ سواء كانت تتعلق بموضوعات التاريخ الوقائعي أو دراسة القضايا الاجتماعية والثقافية.

- بعض الموضوعات تتطلب ترتيبا زمنيا للمادة العلمية - التسلسل الزمني - ويندرج تحته الترتيب الموضوعي، وموضوعات أخرى توزع المادة موضوعيا أولا.

- عند الانتقال إلى المراجع والدراسات العلمية على الطالب أن يركز على التحليل والتعليق والمقارنة أولا.

- على الباحث أن لا يقتصر على العودة إلى الكتب التي تناقش وتتصل بموضوعه اتصالا مباشرا فقط، بل عليه أن يستعين بمؤلفات وعلوم مساعدة له، وقد يجد فيها مادة علمية قيمة، أو تساعده على الأقل على إدراك وفهم موضوعه، مثل بعض الكتب الأدبية، والجغرافية والفقهية والعمرانية وغيرها، إضافة إلى القواميس والأطالس ودوائر المعارف، فإذا كان موضوع الباحث عن الحروب والصراعات بين الدول في فترة زمنية ما، فعليه الرجوع إلى الدراسات المتعلقة بتطور العلاقات الدولية لتلك الفترة، وعلاقتها بالمراحل السابقة واللاحقة.

- على الباحث كذلك أن يوسع قراءاته خارج الفصول والمباحث المرتبطة مباشرة بموضوعه، لأن ذلك أفيد له تكوينا وفهما، وتمكنه هذه الخطوة من أدوات البحث والنقد، وتكسبه زادا معرفيا على المدى المتوسط والطويل، فالقاعدة هي: "أن أغزر المؤلفين إنتاجا أكثرهم مطالعة"، إضافة إلى أنها تخدم موضوعه بطريقة أو بأخرى.

- توجد طريقتين لجمع المادة العلمية: الأولى أن نأخذ نصا يرتبط ارتباطا مباشرا بالموضوع كشاهد أو دليل على واقعة تاريخية، وقد يكون النص في حجم فقرة أو أقل أو أكثر، فينقل حرفيا ويوضع بين شولتين" " للأمانة العلمية، على أن يكتب بأسلوب الباحث أثناء التحرير، ويسجل مصدره – المؤلف، عنوان الكتاب، الصفحة -. والطريقة الثانية هي تلخيص أفكار النص الطويل الموجود في أصله في صفحة أو بضع صفحات، بأسلوبنا وباختصار، وهي عملية تصعب اليوم على الكثير من الطلبة والباحثين، كما أنها تميز الباحث الجاد عن غيره، ويجب مع ذلك نسبة ذلك الملخص وتلك الأفكار لمصدرها وصاحبها، لأن الباحث هنا لخص ونقل أفكار غيره.

طريقة تسجيل المعلومات:

الطريقة التقليدية المستعملة عند الباحثين هي تسجيل المعلومات على بطاقات لها شروطها ومواصفاتها، وهي نفس الشروط والمعايير المستعملة اليوم ولكن على جهاز الكمبيوتر الذي سهل العملية كثيرا، فيمكن توزيع أقسام وفصول ومباحث الدراسة في ملفات، كما يمكن تجزئة العناصر إلى أكبر عدد حتى يسهل صب المادة العلمية، والميزة

الكبيرة والمهمة لهذه الأداة أنها تسهل عملية تحريك العناصر والمادة العلمية داخل الفصول والمباحث، وكذلك التعديل والحذف والإضافات.

أما من حيث طريقة التسجيل فلا تختلف سواء على الجهاز أو البطاقات أو الملفات، فيأخذ الباحث النص اقتباسا أو تلخيصا ويضعه تحت عنوان القسم الذي يليه عنوان الفصل وبجانبه عنوان المبحث (وربما عناوين أخرى فرعية)، مع تسجيل أصله بتدوين: المؤلف، عنوان الكتاب، الصفحة؛ وأثناء مرحلة التسجيل وتراكم المادة يمكن للباحث أن يحركها من مكانها بسهولة، دون أن ينسى تسجيل تلك المادة في ملفات جانبية أو نقلها إلى بريد الإلكتروني حتى لا تضيع منه بسبب أو آخر.

متى ينتهي الباحث من مرحلة جمع المادة العلمية؟ يتوقف الطالب من هذه المرحلة خاصة في مذكرة الماستر حيث المدة الزمنية محددة نتيجة ثلاثة عوامل رئيسة هي:

- بعد رجوع الطالب إلى أهم المصادر والمراجع والدراسات الأكاديمية ويحسن استغلالها.
- عندما يجد الطالب أن عناصر بحثه توفرت على المادة العلمية اللازمة، وبتوازن بين الفصول والمباحث.
- وأخيرا يتوقف الطالب عن جمع المادة بعد أن يرجع إلى المشرف ويأذن له بالدخول إلى مرحلة المعالجة والتحرير.